

ثورة العشرين (٣٠ حزيران ١٩٢٠) في العراق منظور جغرافي

د. عبد علي الخفاف*



تهدف هذه الورقة الى الإجابة عن السؤال: كيف أثرت الظروف الجغرافية السائدة في عشرينات القرن الماضي في أحداث ثورة العشرين وساعدت على انتشارها في العراق؟
● مدخل نظري:

لا نريد أن نكون من الحتميين الذين يرون أن للجغرافية هيمنتها وسلطاتها غير المحدودة على الإنسان ونشاطاته كما رأى ذلك ديمولان Demmolan والمس سمبل Ms simpl فقد بالغ ديمولان لدرجة أنه قال إعطوني خريطة بلد ما لأتعرف على تضاريسه ومناخه وموارده وسوف أدلكم على الطريق الذي سيسلكه ويبني به تاريخه.

صحيح أن الجغرافية من وراء التاريخ Geography behind History لابد أن يكون لها دور في التاريخ ولكن ليست بمستوى الحتمية. لقد شكلت آراء الحتميين مدرسة جغرافية يطلق عليها المدرسة الحتمية Determanisim، كما شكلت أيضاً نظرية إعتمدها بعض من العلماء والباحثين في التاريخ يطلق عليها النظرية الجغرافية لتغيير التاريخ وهي واحدة من أشهر أربع نظريات وهي:
- نظرية البطل The hero theory لتوماس كارليل.

- النظرية الاقتصادية Economic Theory تستند الى دور صراع الطبقات في الحراك التاريخي كارل ماركس.

- النظرية الجنسية The sexual theory وجاء بها عالم النفس النمساوي سيغموند فرويد Sigmund Freud وهو يرى أن المحرك الكبير للتاريخ ومحطاته الرئيسية هو الجنس. إستند الكاتب والروائي جرجي زيدان اللبناني الأصل ومؤسس مجلة الهلال في القاهرة في كتابة التاريخ الإسلامي على صيغة روايات على أساس هذه النظرية، من رواياته الشهيرة عادة كربلاء وشجرة الدر.

*أكاديمي / العراق

العدد الثاني - 2020



- نظرية الأسباب المتعددة وقد أكد عليها المؤرخ توينبي Arnold J. Toynbee رفض هذا المؤرخ أن يحصل التاريخ بسبب واحد فهو رآه فعلاً معقداً يحتاج الى جملة أسباب لتفسيره.

كتب الكثيرون عن هذه الثورة منها كتابات منهجية علمية ومنها ما هو بمستوى رسائل ماجستير وأطاريح دكتوراه، وكل باحث لا شك في أنه يبحث في الأسباب حسب النظرية التي يعتمدها. كان لنظرية (البطل) نصيبها الكبير فتم تناول العديد من أبطال الثورة في بحوث ودراسات تفصيلية من رجال الدين ومن رؤساء العشائر نشير الى بعض منهم.

من الباحثين من ركز على الواقع الطبقي والفلاحون في الريف كانوا يشكلون نسبة حوالي ٨٠٪ من إجمالي السكان الذي كان يقدر بحوالي ١٨٠٠٠٠٠ نسمة^(١) وهم يعيشون في ظروف قاسية، يكدحون في الأرض الزراعية ولا يحصلون إلا على ما يقدمه لهم الإقطاعيون من كفاف العيش. لقد حول مدحت باشا (١٨٦٩-١٨٧٢) رؤساء العشائر الى إقطاعيين فأنتقلت السلطة لهؤلاء الرؤساء من سلطة أبوية اجتماعية الى سلطة ادارة إقتصادية فهم أصبحوا ملاكي الاراضي اكثر من كونهم رؤساء عشائر. كان الهدف من مشروع الوالي العثماني مدحت باشا هو ضمان الولاء لهؤلاء الرؤساء الى الباب العالي في الأستانة.

إنتفض الفلاحون من واقعهم الإقتصادي الصعب بل والصعب جداً أملاً بأن ثورتهم ستحسن حالهم ولكن الثورة لم تحقق لهم شيئاً ووقعت أسيرة لأهداف الإقطاعيين واهداف البرجوازية التجارية الصغيرة التي كانت في المراحل الاولى لنموها وهي اهداف تلخصت في الخلاص من الأجنبي (النصراني)

وهو في حقيقة الأمر ليس خلاصاً بل هو تعامل سري معه، كذلك تأسيس سلطة (وطنية) لرؤساء العشائر والبرجوازيين داخل المدن تشكلت فيها المناصب اللازمة لهم ولصالحهم. في واقع الثورة حينذاك كان رجال الدين يشكلون النخبة الاجتماعية دون غيرهم فمن الطبيعي أن يتصدروا مشهد الثورة لطردهم الاجنبي (النصراني) وللحفاظ على مكانة المؤسسة الدينية دون منافس.

تناول بعض من الباحثين دور المرأة في هذه الثورة فكان لخروجها الى أطراف ساحات المعارك وما تقدمه من مساعدات لوجستية وما تقوله من شعر... كل ذلك كان له دور في خلق الحماس للمقاتلين.

الظروف السياسية والإدارية قبل الثورة:

لازال العراق قبل الثورة أربع ولايات هي:

- شهربزور- الموصل- بغداد- البصرة

لكل منها إقتصاداتها ومجتمعها المحلي وقد إندمجت مع بعضها بعد خسارة الامبراطورية الحرب واختفائها من الخريطة السياسية للعالم وتأسيس دولة تركية الفتاة، لتشكل سوقاً عراقية واحدة ومجتمعاً عراقياً واحداً. الدولة العراقية الحديثة امتدت على مساحة ٤٣٥ كيلومتر مربع دون مساحة مياهاها الاقليمية في الخليج العربي الفارسي البالغة ٩٢٤ كم^٢،^(٢) تحيط بها (٦) بلدان هي تركيا من الشمال ودولة الكويت والخليج العربي الفارسي من الجنوب وايران من الشرق وسورية والاردن والمملكة العربية السعودية من الغرب. وكما أشرنا فأن عدد السكان فيها كان اقل من (٢) مليون نسمة حسب التقديرات. يُشكل العرب حوالي ٧٥٪ والباقي هم من الكرد والتركمان وبقية الأثنيات.

كانت تفصل بين العراق وجيرانه تخوم واسعة

الدنيا للمرتفعات أو عند جوانب الوديان الفاصلة بينها، ويقترن وجودها عادة بوجود الآبار والعيون في شمال البلاد، إقليم كردستان وما يجاوره.

لقد سهّل التوزيع الجغرافي للسكان المرتبط بتوزيع القرى على خطوط مجاري نهري دجلة والفرات وروافدهما والفروع المتفرعة عنهما في سرعة إنتقال الثورة وسرعة إنتشارها بين حوالي ٨٠٪ هم سكان الريف في العراق يومذاك فكانت الإستجابة للثورة في الوسط والجنوب أسرع من الاستجابة لها في الشمال بفضل طبيعة توزيع القرى وتقاربها في الوسط والجنوب. من البديهي أن يرتبط التوزيع الجغرافي للمستعمرات البشرية، الريفية والحضرية، بمصادر المياه التي تتمثل في وسط و جنوب العراق أي في منطقة السهل الرسوبي بمياه دجلة والفرات حيث يجري النهران باتجاه طولي من بداية السهل الرسوبي عند بلد على دجلة وهيت على الفرات حتى كرمة علي منطقة لقاء النهرين الجديدة فيتشكل شط العرب الذي يستمر جنوباً حتى مصبه في الخليج العربي الفارسي.

لعب السطح تأثيراً واضحاً في جريان النهرين فوق السهل الرسوبي المنبسط والخالي من التضاريس والمنحدر ببطء لا سيما في منطقة المثلث الجنوبي - ميسان ذي قار والبصرة حيث يشتد تباطؤ إنحدار السهل. بينما تنوعت التضاريس في المنطقة الجبلية وشبه الجبلية فباعدت بين القرى المتمركزة حول العيون والآبار.

إن هذا التقارب بين القرى بل والتلاصق أحياناً سرّع كثيراً في حركة الثورة وإنتقالها، وكان من الممكن أن يسهّل عملية القضاء عليها واخمادها من قبل الانجليز إلا أن عدم وجود

خالية من البشر لاسيما من جهة الغرب حيث تمتد الصحارى لتفصل بينه وبين سورية والاردن والمملكة العربية السعودية.

انتظمت حدوده السياسية الحديثة عبر عدد من المعاهدات والإتفاقات ولسنين عديدة. بهذه المساحة تنوعت أرض العراق فتوزعت الى أربع مناطق طبوغرافية وهي:

- منطقة السهل الرسوبي (١٣٢٥٠٠) كم^٢ وهي منطقة الثقل الديموغرافي والاقتصادي والحضري يعيش فيها حوالي ٨٠٪ من السكان.

- الهضبة الغربية وهي ذات طبيعة صحراوية خالية من السكان تقريباً Noncomen (١٦٨٥٥٢) كم^٢.

- المنطقة الجبلية وتبدأ بالمنطقة المتموجة شمال السهل الرسوبي بعد منطقة بلد لتنتهي بالمنطقة الجبلية المعقدة Nappe التي تشغل مساحة ٥٪ من مساحتها البالغة ١٣٤٠٠٠ كيلو متر مربع، وتنحصر المنطقة الجبلية المعقدة عند أقصى شمال شرق العراق مع الحدود التركية الإيرانية.

لا شك من تنوع أحوال المناخ والنبات الطبيعي في البلاد بفعل تنوع التضاريس التي أشرنا إليها فالمناخ على العموم اقل حرارة كلما إتجهنا من الجنوب الى الشمال والنبات اكثر كثافة كلما إتجهنا من الجنوب الى الشمال بفعل تزايد الامطار بهذا الاتجاه أيضاً.

يتوزع سكان العراق جغرافياً على نمطين نمط يتركز على ضفاف الأنهار على شكل خط طولي فتبدو القرى متراسة ومتقاربة مبنية على ضفاف الانهار لتكون قريبة من مورد المياه، وهذا ما يطلق عليه الباحثون نمط التوزيع الطولي. أما النمط الثاني فهو نمط التوزيع المنتشر حيث تبدو القرى عادة عند السفوح



طرق نقل محددة وواضحة حينذاك عمل على صعوبة تنفيذ عملية إخمادها، من ذلك نرى أن لطبيعة السطح أثراً يلمسه الباحث في حركة الثورة.

من الأحوال الجغرافية التي يمكن أن يلتمس تأثيرها الباحث هي أحوال المناخ وهي تتوزع على أربعة فصول هي الصيف وهو أربعة شهور والخريف شهران والشتاء أربعة شهور والربيع شهران. ويتسم الصيف بارتفاع درجة الحرارة فهي تصل الى ٣٥م ك معدل شهري وترتفع الى ٤٥م في بعض الأيام. إن الواقع المناخي هذا كان قاسياً على الجنود الانجليز وعلى قادتهم بينما هي ظروف مناخية يتعايش معها العراقيون بسهولة.

لم يكن النبات الطبيعي من الكثافة بمستوى يسمح باستغلاله في معارك الثوار مع القوات الانجليزية إلا أن لغابات النخيل الكثيفة في منطقة الرميثة ومنطقة الفرات الأوسط عموماً فعلها في لجوء الثوار اليها ومجاهاة القوات الانجليزية وهي غابات يعرف العراقيون دروبها وممراتها فكانت بمثابة السواتر لهم. بالنسبة الى الجغرافية البشرية فكما ذكرنا فإن عدد السكان يقترّب من مليوني نسمة يتوزعون حسب التركيب النوعي بشكل متوازن لدرجة كبيرة، ٥٠٪ من الذكور ومثلها من الاناث. ويتوزعون حسب التركيب العمري بنسبة (١٪- ٢٪) لكبار السن ممن تبلغ اعمارهم خمس وستون عاماً فأكثر وبنسبة ٤٨٪ من صغار السن ممن تقل اعمارهم عن خمسة عشر عاماً وبذلك فإن نصف المجتمع العراقي من القادرين على العمل والانتاج وعلى حمل السلاح، فهو على وفق هذه النسب مجتمع فتي.

لم تتبلور الطبقة العاملة في العراق بعد إذ أن العاملين من أبناء المدن يعملون في النشاط

الحرفي البسيط على شكل ورش يعمل فيها عاملان أو ثلاثة عمال هم عادة الأب وأبناؤه، وهذه الحرف هي الحدادة والنجارة والحلاقة والخياطة، ويعملون في قطاع الخدمات وفي مقدمتها خدمة الحمالة، فأعداد الحمالين في المدن والقصبات ليست صغيرة، كما يعمل البعض في البناء. جميع هذه الحرف كانت بسيطة ولا تحتاج لإلمهارة محدودة.

الأمية منتشرة بين العراقيين فتصل نسبة الأميين حينذاك الى حوالي ٩٩٪^(٣) وكانت مصادر المعرفة والثقافة لديهم هي الكتابات ومنابر المساجد، ومن ذلك كانت لرجال الدين هيمنتهم وسطوتهم الفكرية فمن البدهة أن يستجيبوا بحماس شديد الى فتاوى مرجعياتهم الدينية.

لقد ساعد على مشاركة جميع الطوائف والمذاهب الدينية والمجموعات العرقية طبيعة التوزيع الجغرافي لها، وهو توزيع يجعل من الطائفة الجعفرية الاثني عشرية هي السائدة وبتفوق كبير في المحافظات جنوب بغداد والتي تسكنها أسر ومجموعات محدودة من السنة تتعايش معها بسلام اجتماعي ويجعل من الطائفة السنية هي السائدة وبتفوق كبير في محافظات شمال بغداد تتعايش معها عشريّة. يتعايش أبناء الطائفة السنية في محافظات البصرة وذي قار وميسان وواسط، وتعد مدينة الزبير جزيرة سنية وسط محيط شيعي. كما تتعايش الأسر الشيعية في نينوى وصلاح الدين والأنبار وبشكل واضح في بلد وسيد محمد وسامراء وتعد تلعفر جزيرة شيعية وسط محيط سني. أما في محافظة ديالى فتعيش الطائفتان باعداد تكاد ان تكون متوازنة في سلام اجتماعي على مدى

تاريخ هذه المحافظة، إن هذا التداخل عمل على مشاركة الجميع في الثورة والوقوف ضد الاجنبي إذ صدرت عن مرجعيات الطائفتين فتاوى ترفض الوجود الاجنبي الانجليزي (الكافر) في المحافظات العراقية كافة. أما في العاصمة بغداد الكبرى التي تضم أكبر تكتل ديموغرافي حيث يسكنها ما لا يقل عن (١/٥) سكان البلاد فأن التوزيع الجغرافي للطائفتين وبقية الطوائف يؤشر حالة الاختلاط والتداخل على أن الصفة الغالبة لشرق بغداد هي تركز أبناء الطائفة الجعفرية لاسيما بعد عام ١٩٥٠ في مدينة الصدر (خلف السدة) وفي بغداد الجديدة، وذلك بفعل الهجرة الواسعة من أبناء الاهوار والريف في الجنوب، والصفة الغالبة لغربي بغداد هي تركز أبناء الطائفة السنية التي تتعايش معهم كتلة ديموغرافية كبيرة هم سكان مدينة الكاظمية وهم من الجعفرية.

أما أبناء الطوائف المسيحية فينتشرون في كافة مناطق بغداد الكبرى على أن تركيزهم واضح في مناطق شرق بغداد كما في كرادة مريم والكرادة الشرقية على سبيل المثال.

إن صدور الفتاوى من المرجعيات الشيعية ومن المرجعيات السنية ضد الانجليز وطبيعة التوزيع الجغرافي للطوائف التي نوهنا عنها كانت من وراء الثورة وتأجيجها وانتشارها لتسهم فيها جميع شرائح المجتمع والطوائف الدينية والمجموعات القومية، إذ أن القوميات والإثنيات الاخرى التي تشكل مع العرب موزائيك الشعب العراقي موزعة مابين الطائفتين الإسلاميتين (الشيعية والسنة) أيضاً، فكانت ثورة العشرين ثورة عراقية أسهم بها العراقيون كافة.

كان لموقع العراق الجغرافي دور واضح في هذه الثورة فموقعه من وسط المشرق العربي

وفي منطقة جنوب غرب آسيا جعله يتأثر كثيراً بما يصل إليه من أخبار الحركات الوطنية الراضية للوجود الأجنبي. كان الإنموذج السوري لحكومة عربية مستقلة بزعامة فيصل بن الحسين عاملاً مشجعاً للحركات القومية في العراق. كذلك تنامي الحركة الوطنية في كل من إيران شرقاً وتركيا شمالاً، الى جانب مايرد من أخبار عن الثورة المصرية ١٩١٩ والثورة الروسية ١٩١٧.^(٤)

إن اندلاع شرارة الثورة في قسبة الرميثة عند الطرف الجنوبي من منطقة الفرات الاوسط التي تمثل أعلى كثافة سكانية ريفية في العراق، وذلك باعتقال شعلان ابو الجون رئيس عشيرة الضوالم، ألهب جميع منطقة الفرات الاوسط بشكل سريع حتى إنتقلت أصداء الثورة الى شمال الفرات الاوسط الى بغداد وشمالها والى جنوب الفرات الاوسط أي الى مثلث العراق الجنوبي في حوضي الفرات ودجلة واخيراً حوض شط العرب.

● الهوامش:

(١) عبد علي، الخفاف، ١٩٩٤، واقع السكان في الوطن العربي، دار الشروق - عمان، الاردن، ص ٣١.

(٢) وزارة التخطيط - الجهاز المركزي للاحصاء، المجموعة الاحصائية السنوية (٢٠١٤-٢٠١٦) الجدول ١/١.

(٣) عبد علي الخفاف، المصدر السابق.

(٤) ينظر الى:

- كمال مظهر أحمد، محاضرات في تاريخ العراق المعاصر، قسم التاريخ - كلية الاداب - جامعة بغداد.
- ل.ن. كوتولوف، ١٩٧٥، ثورة العشرين الوطنية التحريرية في العراق، ترجمة عبد الواحد كرم، دار الفارابي، بيروت.

- وميض جمال عمر نظمي، ١٩٨٥، ثورة ١٩٢٠ الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربية الاستقلالية في العراق، ط ٢، بغداد.

